العلم والوجود

ذكرنا فيما تقدم أن الفلسفة عند الفارابى هى العلم اليقينى القائم على البرهان بحقائق الموجودات.

وقد شجر كثير من الخلاف بين المدارس الفلسفية على إمكان هذا العلم وعلى موضوعه ووسائله، أى هل العلم بحقائق الكون الثابتة من الأمور الممكنة للإنسان؟ وهل فى هذا الوجود الذى يحيط بنا حقائق ثابتة؟ وهل المحسوس الذى نراه ونلمسه يدخل فى حيز هذه الحقائق، أم هو صورة لها لا غير؟

ذهبت مدرسة فيثاغورث والإيليون والميجاريون إلى أن العلم اليقينى لابد وأن يتألف من قضايا صادقة لا يتغير صدقها أبداً، ولا يمكن أن تكون كذلك إلا إذا تعلقت بأشياء أبدية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

ولما كانت المحسوسات خاضعة للكون والفساد فهى محل للتغير المستمر، وعلى هذا لا يمكن أن تكون موضوعًا للعلم اليقينى.

وكان من نتيجة هذا التصور أن ذهبت طائفة من السوفسطائيين إلى إنكار حقائق الأشياء، وزعموا أنه ليس لهنا ماهيات مختلفة، وحقائق متمايزة فضلا عن اتصافها بالوجود، وقالوا إن قصارى ما يدركه الإنسان من الوجود - على فرض وجوده - هو ما يدركه بالحواس، فأصبحت المعرفة بهذا جزئية كالحس، متغيرة مثله، حتى قالوا لا علم فى الحقيقة ولا حكمة، وهذه الطائفة تعرف عند العرب باسم "العنادية".

وذهبت طائفة أخرى مثل بروتاغوراس ومن نحا نحوه إلى القول بأنه ما دام التفكير قائمًا على موضوعات الحواس وراجعًا إليها، وما دامت المحسوسات تبدو للإنسان لا كما هى فى ذاتها، وإنما كما يصورها له الحسن، فقد استحال إدراك الحق بوجه، وإنما مذهب كل قوم حق بالقياس إليهم، وباطل بالقياس إلى خصومهم، وقد يكون طرفا النقيض حقا بالقياس إلى شخصين، وليس فى نفس الأمر شيء بحق. وتعرف هذه الطائفة عند العرب باسم "العندية".

وقد سلم أفلاطون ببعض مذهب بروتاغوراس وأنكر البعض. قدح مثله فى الحسيات، غير أنه ذهب إلى إمكان العلم، وقرر أن العقل لا يقنع بالإحساس، بل يعتبره أدنى مراتب المعرفة، وهو يطلب الوضوح والدوام، بينما المحسوسات فى تغير مستمر.

يقول أفلاطون فى الكتاب الرابع من الجمهورية: "قد يسر محب الروايات العادية بالمناظر والألحان والصور الجميلة وما يتألف من ذلك، ولكنه لا تستطيع قوته المدركة اكتشاف طبيعة الجمال. فإن الذى يظن بعض الأشياء جميلة لا يعلم الجمال نفسه.

"ألا ترى أنه يعيش فى حلم؟ فإنه يحلم من يظن فى مثال شيء من الأشياء أنه حقيقة الشيء لا مثاله. أما الذى يفهم طبيعة الجمال الحقيقى، ويميزها عن متعلقاتها، ولا يظن أن الجمال هو توابعه، ولا التوابع هى الجمال، فهو يعيش يقظان، ويكننا أن نسمى قوته العقلية علمًا بالتدقيق، حيث أنه يعلم حقًا، ونسمى قوة الآخر ظنًا إذ هو يظن فقط، فإن الذى يمكن أن يعلم هو الكائن الحق، أما غيره فلا يمكن أن يعلم البتة".

ونرى من هذا أن أفلاطون قـرر إمكان العلم بشرط أن يكون موضـوعه "الكائن الحق" . والـكائن الحق عنده لا يمكن أن يكـون هذا الشيء الجـزئى المحسوس الخـاضع للكون والفساد، والذى هو فى تغـير مستـمر، بل هو فى رأيه الجوهر الكائن أبداً الذى لا يتغيـر بالكون والفساد، هذا الجوهر هو المعنى أو المثال، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة جمـيعًا، أما المحسوس فهو فى رأيه خيال لا يمكن أن يوَصف بالوجود الحق.

وذهب أفـلاطون أيضًا إلى أن العلم هو اتصـال جوهريًا العـاقل بما فى الوجود من الجواهر المعقولة. وهو بهـذا ينكر إمكان حصول المعانى فى العقل بطريق الحواس، ويقرر أن المعـانى تنكشف للبصيرة دون مشـاركة الحس، فإذا تجردت النفس عن العـلائق الطبيـعية وانحـازت إلى جوهرها، صفـا بصرها فأدركت تلك الجواهر.

ويرى أفلاطون أن العلم هو التذكر، وذلك لأن النفس كانت فى العالم الأعلى جوهراً مـجردًا عن المادة ثم هبكت إلى هذا العالم المحسـوس، وأنها كانت قد أدركت المثل فى حـياتها الأولى ثم نسيتهـا عندما لابست هذا البدن الكثـيف وسكنت كفـه المظلم، ولما كان بين المحـسوس والمثـال مشـاركة فى الصورة، فإن النفـس عندما تصادف المحسوسـات تثير هذه المشاركـة ذكرياتها فتفيق من نسيانها، وتذكـر ما رأته فى عالم المثل من قبل. وبهذا تدرك ماهية الشيء المعلوم.

جاء بعد ذلك أرسطـو فنازع الذين قدحوا فى الحسيـات، وأنكر عليهم رأيهم، ونقد مـذهب المثل فى شدة وعنف، وقال إن غرض الفلسـفة إنما هو البحـث عن علة كل ما يمكن مـشاهدته، وقـد غفلت نظرية المثل عـن بيان

السبب الذى يصدر عنه مبدأ التغير، ومع اعقتادنا بأنها تعلل ماهية المحسوسات فإنها لا تفعل أكثر من تخيل جواهر أخرى بجانبها.

ويقرر أرسطو أن معارفنا جميعًا آتية من الحس وحده، ولذلك فإن من فقد حسا ما فقد علمًا ما. والحس والعقل عنده متصلان فى الوحدة الإنسانية وتحصل المعانى باشتراكهما. يدرك الحسّ الجزئيات ويحفظ صورها فى الخيال، وينتزع العقل هذه الصور من الأغراض الشخصية ويتمثل الماهيات، فمثلا إذ دخل الإنسان حجرة ورأى فيها عدة أفراد، فإنه يدرك أن هناك أشياء تفرق بينهم، وأشياء يتفق فيها الجميع، فإذا نزع ما يختلفون فيه، وأخذ ما يتفق فيه الجميع، فهذا هو المعنى الكلى أو ماهية الإنسان. وهذا العمل الذى يعمله العقل يسمى "التجريد".

وبهذه النظرية ينكر أرسطو رأى أفلاطون فى أن الكليات جواهر قائمة بنفسها، مفارقة للطبيعة الحسية، ويقرر أن الكلى لا وجود له فى خارج الذهن، فلا يوجد فى الأعيان شىء هو ماهية أو كلى بل يوجد فرس معين أو إنسان معين. قال: "فهمًا صنفان: الفرس والإنسان، وصنف إذا وصفناهما من غير التفات إلى أن يقارنهما شىء أم لا، بل من حيث مفهومهما ويسمى هذا الصنف الماهية أو المطلق وليس له إلا وجود عقلى.

والصنف الثانى ما يوجد فى الخارج من المشخصات أى هذا الفرس وهذا الإنسان وهذه الشجرة إلى غيرها من الأفراد فهذه هى الأعيان الموجودة فى عالم الحسن لا غير، ونحن ننتزع من هذا الشخص الجزئى معقولة بواسطة التجريد.

جاء بعد أرسطو طائفة من الفلاسفة كان أبلغها أثرًا فى فلاسفة الإسلام مدرسة الإسكندرية التى استخلصت مذهبها مما تقدمها.

وعمدة كلامهم أن أفلاطون وأرسطو لم يكن بينهما خلاف إلا فى أساليب البحث وفى المباحث الفرعية.

وقد ذهب فلاسفة هذه المدرسة إلى القول بإمكان العلم وقرروا أن له طريقين: أحدهما يقوم على البحث والنظر، والآخر علم ذوقى يكون بطريق تصفية النفس بالرياضة، وهم بتقرير هذين النوعين من العلم إنما يجمعون بين مذهبى أرسطو وأفلاطون.

وقد اصطنعوا مذهب أفلاطون فى القول بهبوط النفس من عالمها الأعلى، وأنها اشتاقت إلى معرفة هذا العالم المحسوس فأهبطت إليه لتوسع دائرة معارفها ولكى تمتحن. فإذا اتصلت النفس بالبدن لحقها النسيان، وتراكم عليها الجهل والظلام، حتى ترجع إلى ما كانت عليه.

هذه هى مذاهب فلاسفة اليونان ومدرسة الإسكندرية فى إمكان العلم وفى موضوعه.

وقد عنى علماء الكلام وفلاسفة الإسلام بالبحث فى موضوع العلم عناية كبرى. بدأوا بالكلام فى تعريفه فتساءلوا: أيمكن تعريف العلم، أم هو من البداهة بحيث لا يحتاج إلى تعريف؟

واقسموا فى هذا إلى مذاهب ثلاثة: أحدها يقول إنه لا سبيل إلى تعريف العلم، وذلك لأنه ضرورى: أى لا يحتاج إلى فكر لحصوله فى النفس، وما دام العلم يحصل من غير تفكير فلا يمكن تعريفه، لأن معنى

التعريف هو التـفكير الموصل إلى مجهول، والعلم ليس مجـهولا لأنه حاصل فى النفس من غير تفكير.

والمذهب الثانـى يرى أن العلم نظرى أى يحصل بتـفكير، لكن تعـريفه عسـير إلا بطريق القسـمة، فنقول مثـلا: الاعتقـاد إما جازم أو غيـر جازم، والجازم إما مطابق أو غير مطابق، والمطابق إما ثابت أو غير ثابت، فنخرج من هذا بأن العلم اليقينى اعتقاد جازم مطابق ثابت.

وأمـا طريق المثال فـكأن تقول العلـم إدراك البصـيـرة المتشـابه لإدراك الباصرة.

أما المذهب الثالث فيقـول: أن تصور العلم نظرى أى يحتاج إلى فكر. أما تعريفه بحقيقته فميـسور وممكن، وذكروا عدة تعريفات تجدها مبسوطة فى الجزء الأول من كـتاب المواقف ولكن المختـار منها هو قولهم: "العلم صـفة ينكشف بها المطلوب انكشافًا تامًا لا اشتباه فيه".

يريدون بذلك أنه صفة تقوم بالنفس فتـدرك المجهول سواء أكان كليًا أم جزئيًا، موجودًا أم معدومًا، ممكنًا أم مسـتحيلا. ويريدون بقولهم انكشافًا تامًا أى مطابقًا للواقع لا شبهة فيه.

أما الفـلاسفة وعلى رأسـهم الفارابى فـيقولون "أن العلم هو حـصول صورة الشىء عند العقل" وهم يريدون بلـفظ الشىء ما يمكن أن يعلم سواءً أكان جزئيًا أم كليًـا، موجودًا أم معدومًا. ويقولون عنـد العقل يعنى حصول صورة المعلوم فى آلات العقل وهى الحواس وذلك فى الأمـور المحسوسة. أما فى الأمـور الكليـة المجـردة فتـحـدث صـورة المعلوم فى العـقل دون توسط الحواس.

وعندما يريد الفلاسفة إطلاق لفظ العلم بمعنى إدراك الكليات يقولون فى تعريفه "هو تمثل ماهية المدرك فى النفس" أى حصول صورة ماهية الشىء فى النفس: ويسمى الفلاسفة الصور الذهنية النقولة بالحواس المعقولات الأولى، أما الكليات المجردة فيسمونها المعقولات الثانية.

يقول الفارابى "إن أمور العالم وأحواله نوعان: أمور لها أسباب عنها تحدث، وبها توجد كالحرارة عن النار وعن الشمس. وأمور اتفاقية ليست لها أسباب معلومة كموت الإنسان أو حياته عند طلوع الشمس أو غروبها.

وكل أمر له سبب معلوم، فإنه معد لأن يعلم ويضبط ويوقف عليه، وكل أمر من الأمور الاتفاقية فإنه لا سبيل إلى أن يعلم ويضبط ويوقف عليه البتة بجهة من الجهات.

بهذا يضع الفارابى الأساس للعلم بمعنيى العلة أو السبب أو القانون الذى يسترشد به العقل الإنسانى فى أحكامه الخلقية والسياسية والعقلية.

والعلم عند الفارابى ينقسم إلى قسمين: فطرى، ومكتسب. الأول هو هبة الطبيعة للإنسان، أما الثانى فتشاهد فيه الصناعة.

والعلم الفطرى لا يكفى فى نظره للوصول إلى الحق اليقين، لابد إذن من العلم المكتسب الذى تحصله النفس بسعيها، ولابد من مراعاة قوانين خاصة فى طلب هذا العلم حتى يأمن الإنسان الزلل.

هذه القوانين يفصلها ويضبطها علم المنطق والقوانين العامة للعلوم المختلفة، ويقسم الفارابى العلم أيضًا إلى قسمين: تصور مطلق، أى إدراك صورة الشىء من غير حكم عليه كما تتصور الشمس والقمر والعقل والنفس.

وتصور مع تصديق أى مع حكم كالعلم بأن العالم حادث.

والتصور منه مـا هو أولى فى النفس لا يحتاج لحصوله فيـها إلى تصور آخر يتـقدم عليه. ومنه مـا هو غير أولى، ولابد من أن يسـبقه تصـور آخر. ولكن لابد من وقوف العـقل عند تصورات أولية كـتصور الوجـود والوجوب والإمكان فإن مثل هذه التصـورات شديدة الوضح فى النفس حتى أنه إذا أريد إظهار معانيها بالكلام عليها، فإنما يكون ذلك تنبيه للذهن فقط.

ويقسم الـفارابى التصـديق أيضًا إلى أولى وغـير أولى: فـالتصـديقات الأولية هى البديهيات أو المقدمات الأول مثل: إن طرفى النقيض أبدًا ما يكون أحدهما صدقًا والآخر كذبًا.

أما غير الأولى فهو الذى لا يمكن إدراكـه ما لم تدرك قبله أشياء أخر، فإذا أردنا مثـلا أن نعلم أن العالم محدث وجب أولا أن يحـصل لنا التصديق بأن العالم مؤلف، وأن كل مؤلف محدث ثم نعلم أن العالم محدث.

ويقـرر الفارابى أن النفس تدرك الصـور المحسـوسة بالحـواس، وتدرك الصور المعقولة بتوسط صورها المحسوسة. أما المعانى الكلية فليست توجد إلا فى الذهن فقط.

هذا فيـما يتعلق بالصور المحـسوسة، ولكن المجـردات كالنفس والروح وواجب الوجود كيف تعلقها النفس؟

يقول الفـارابى إن ما كـان بريئًا من المادة لا يحـتاج فـيه إلى التـجريد لانتـزاع الصـور المعقـولة، وذلك لأن العـقل يصـادف هذه الصور مـنتزعـة فيعلقها.

فالعلم إذن نوعان: حصولى أى يحدث بحصول صورة الشىء عند العقل فمثلا إذا رأينا شجرة فإن صورتها تحدث فى البصر فندركها بطريق الحس.

وعلم حضورى كإدراك الإنسان لنفسه أو للمعانى المجردة فإنه يحدث من غير صورة خارجية وبغير توسط للحواس.

وأداة التعقل فى الإنسان هى النفس وهى فى رأيه جوهر مفارق له قوى مختلفة تختص كل واحدة منها بوظيفة معينة، وبعض هذه القوى تظهر أفعاله بالآلات الجسمانية كالغاذية والمربية والمولدة، والبعض الآخر لا يحتاج فى فعله إلى الآلات الجسمانية كالعقل العملى والعقل العلمى أو النظرى.

أما العقل العملى فهو قوة النفس التى تستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية.

والعقل العلمى أو النظرى هو الذى يتم به جوهر النفس بالمعرفة أو هو القوة التى تتمكن من تصور المعنى بحده وحقيقته ولهذا العقل مراتب:

فإذا نظرنا إليه باعتبار النسبة بينه وبين المعقولات وجدناه تارة كالصحيفة البيضاء قابلا للمعقولات دون أن يعقلها بالفعل وهو فى هذه الحالة استعداد محض للتعقل ويسميه العقل الهيولانى أو العقل بالقوة: فإذا حصلت فى هذا العقل المعقولات الأولى أى الصور الذهنية المنقولة من الحواس أصبح عقلا بالفعل، وإذا حصلت فيه المعقولات الثانية أى المجردات فقد أصبح عقلا مستفاداً.

ولكن هل العقل الإنسانى أداة كافية بنفسها لأن تعقل ما يرد عليها من صور محسوسة أو معقولة؟

يقول الفارابى أن العقل الإنسانى مثل القوة البـاصرة فيها استعداد لرؤية الأشياء، ولكن لابد لها من ضوء الشمس لـكى تبصر، وكذلك العقل فإنه لا يستطيع أن يدرك الـصور إلا بمساعـدة جوهر آخر مفـارق هو بالنسبـة للعقل الإنسانى كالضوء بالنسبة للبصـر: هذا الجوهر هو عند الفارابى العقل الفعال، ويسميه أيضًا الروح الأمين أو روح القدس.

بينا نظرية الفـارابى فى العلم وفى إمكانه، وقـد ذكرنا من قـبل أنه إلى جانب اشتغالـه بالفلسفة كانت تغلب عليه أحيانًا نزعة الـتصوف، ولهذا نجده يقول فى رسالة الـفصوص "إن لك منك غطاء فضلا عن لـباسك من البدن، فاجهد أن تتـجرد فحينئذٍ تلحق، فلا تسال عمـا تباشرة. وإن ألمت فويل لك وإن سلمت فطوبى لك. وأنت فى بدنك كـأنك لست فى بدنك، وكأنك من صقع الملكوت، فترى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

وليس من شك فى أنـه بهذا الـقول يقـرر العـلم الذوقى على طريقـة الصوفية.

***